ذهب مع الريح لمرجريت متشل

بقلم
السيدة صوفى عبدالله

١ — حياة المؤلفة

« مرجريت متشل » اسم الشهرة أو الاسم المستعار الذى اتخذته لآثارها القلمية مسز جون مارش الروائية الأمريكية المولودة بمدينة أتلانتا بالولايات المتحدة الأمريكية على رأس هذا القرن العشرين فى سنة ١٩٠٠ وهى الإبنة الوحيدة ليوجين نيوز متشل . وقد تلقت علومها فى أتلانتا بمدرسة دير وشنطن ثم أتمت دراستها فى كلية سمث بولاية ماساشوستس .

وفيما بين سنتى ١٩٢١ ، ١٩٢٦ عملت مخبرة صحفية ومحررة فى صحيفة أتلانتا جورنال . وتوطدت فى هذه المدة علاقتها برئيس تحرير تلك الصحيفة جون مارش وتحولت من الصداقة والإعجاب إلى الحب . فتزوجا فى سنة ١٩٢٥ . وبعد عقد الزواج بقليل — أى فى سنة ١٩٢٦ اعتزلت العمل فى الصحافة لتتفرغ لشئون البيت ولا سيما أنها منيت — فى تلك السن المبكرة — بداء هو روماتزم المفاصل جعل الحركة الكثيرة مصدر ألم مرهق لها ، وكانت الدلائل كلها تدل على أنها قد أخلدت نهائياً إلى حياة الراحة فى البيت ومحاولة التغلب على أوجاعها الروماتزمية المتكررة التى تلزمها الفراش أوقاتاً كثيرة متقاربة . ولكنها فى واقع الأمر عاشت مدى ست سنوات على الأقل ، فيما بين سنتى ١٩٣٠ ، ١٩٣٦ تقوم فى باطن سريرتها بنشاط جم يصل إلى حد الإفراط وهى قعيدة البيت ، أو طريحة الفراش ، على نحو لا يطمع فى تحقيقه أصح الأصحاء بدناً وأقدرهم على التنقل والمغامرة !

وليس من النادر فى سير الكتاب والشعراء أن تكون أعمالهم الأدبية سبيلا للتنفيس عما يعجزون عن تحقيقه فى دنيا الواقع ، فرهين المحبسين شيخ معرة النعمان نفس عن محبس العمى وعن محبس الدار بأعظم رحلة من رحلات الخيال فى الأدب العربى ، بل إنها من الرحلات العظيمة المعدودة فى آداب العالم أجمع ، فلم يكفه أن يجوب الأرض على غرار الرحالين أصحاء الجسم والنظر ، فطاف السماء على براق الخيال وجاب الأزمان فى رسالة الغفران . ومثل ذلك صنعه جون ملتون فى فردوسه المفقود وفى فردوسه المستعاد .

والحقيقة أن مؤلفتنا مرجريت متشل كانت منذ أيام الطلب والتحصيل مشغوفة بالدراسات التاريخية . وانخرطت فى عضوية جمعية الدراسات التاريخية بأتلانتا وجمعية الهيمجونوت فى كارولينا الجنوبية . ومنذ سن

السادسة عشرة تعلق قلبها بالكتابة ، واتخذت منها هواية مثمرة ، وهذا ما حدا بها إلى احتراف الصحافة بمجرد تخرجها .

وكان هذا الشغف بالتاريخ وتفصيلاته فى نصف الكرة الغربية ، وتاريخ المستعمرات على العموم ، شغلها الشاغل طيلة الوقت . فلما تزوجت ومرضت واعتزلت الصحافة ، تفرغت تفرغاً تاماً لإشباع هذا الشغف الذى تحول إلى نهم لا يشبع :

وكان الحافز الذى أطلق خيالها فى هذا الاتجاه ، ما سمعته فى طفولتها وصباها الباكر من أفواه المسنين ، ولا سيما من طائفة الخدم الزنوج عن أحداث الحرب الأهلية ، وما جرى على ألسنة الناس من ذكر مشاهدها وكروبها وويلاتها ومعاركها ومغامراتها . ومن عادة العامة أن تتخذ هذه الصور على ألسنتهم ألواناً صارخة وتهاويل تلهب العاطفة الغضة ، وتستثير الفطرة التى رزقت مخيلة خصبة . وبذلك لم يكن شغف مرجريت متشل بتاريخ تلك الفترة بالذات ، شغفاً علمياً منهجياً جافاً ، بل كان شغفاً حياً متجسداً على الدوام فى صورة حسية تدخل فى إطار الفن ولا تستخدم مادة التاريخ إلا لخدمة الأغراض الفنية والتصوير الإنسانى النابض . فكان من الحتم إذن أن يثمر هذا الشغف عملا من أعمال الفن يستخدم التاريخ أداة من أدواته ليجسده واقعاً حياً من خلال عواطف الناس وتفكيرهم وتصوراتهم الاجتماعية وقيمهم الفردية والجماعية .

ومنذ أخلدت مرجريت متشل إلى حياة البيت فى سنة ١٩٢٦ وهى تقرأ وثائق وأسانيد لا حصر لها عن تاريخ فترة الحرب الأهلية بين ولايات الشمال والجنوب بسبب أزمة تحرير العبيد التى أثارها الرئيس ابراهام لينكولن ، فتجمع لها حتى سنة ١٩٣٠ مقدار ضخم جداً من المادة التاريخية والحقائق الاجتماعية ، فى صدد تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الأمة الأمريكية ، حتى إذا شعرت بالامتلاء التام بموضوعها شرعت تكتب عملها الأدبى المفرد الذى لم تنتج غيره إلى أن لقيت مصرعها فى سنة ١٩٤٩ على أثر حادث تصادم وهى مستقلة سيارة أجرة فى بلدها أتلانتا :

وهذا العمل الوحيد الذى أذاع شهرة مرجريت متشل وسيبقى اسمها فى أذهان الناس أمداً طويلا من الدهر ، هو روايتها الضخمة « ذهب مع الريح » .

وقد سلخت مرجريت متشل فى كتابة هذه القصة المستفيضة ست سنوات كاملة أو أكثر قليلا . وقد جعلت بؤرتها قصة حب بين شخصيتين مغامرتين صلبتى العود من الرجال والنساء : هما سكارلت أوهارا ورت بتلر ، وأدارت حول هذا الحب المضطرم المعقد أحداث الفترة التاريخية والاجتماعية ، مستعينة بعدد ضخم من الشخصيات النابضة بالحياة فى البيئة التى عاشت فيها سكارلت .

وليست قصة غراميات سكارلت أوهارا هى المقصودة فى المقام الأول ، بل المقصود هو ما نسج حول هذه الغراميات من جو الحرب وتأثيرها فى حياة الناس وسلوكهم وأحوالهم من جميع الوجوه ، على نحو مجسم لا تحيط به كتب التاريخ القائمة على المنهج العلمى الجاف وحده :

ومما يجدر بالذكر أن طريقة المؤلفة فى كتابة هذه القصة المترامية الأطراف المائجة بالشخوص والحوادث ، تدعو إلى العجب ، إذ كانت تكتب فصولها الكثيرة بغير نسق متعاقب ، فبعد الفصل الرابع قد تكتب الفصل الثلاثين ، وبعد الفصل الثلاثين قد تكتب الفصل العاشر ، ثم تكتب الفصل السابق للأخير ، لتعود إلى الفصل الخامس أو السابع ، وهكذا . وليس ذلك ممكناً بطبيعة الحال ، إلا إذا كانت المؤلفة تستحضر فى ذهنها حلقات الرواية المترامية بجميع تفاصيلها وتشعباتها ودقائقها ، وتتمتع فوق ذلك بذاكرة جبارة لا يفوتها شىء من تلك الدقائق :

ونحن نعرف كتاباً يصنعون مثل ذلك فى أعمال غير قصصية مثل كتب الدراسات ، أو كتب السير . ولا عجب فى ذلك ، لأن الفصول فى تلك المؤلفات قائمة على معان ذهنية؛ كل معنى منها يصلح أن يكون قائماً برأسه مستقلا عن غيره . ولكن الأعمال القصصية الضخمة ليست من هذا القبيل ، ولا بد فيها من ابتناء اللاحق على السابق ابتناء كلياً وجزئياً . فلا يتسنى إتباع هذه الطريقة إلا إذا كان العمل القصصى الضخم حاضراً برمته حضوراً واضحاً تاماً فى ذهن الكاتبة ، ولها أن تتبع فى هذه الحالة وحى الساعة فى كتابة هذا المشهد أو ذاك من مشاهد الرواية ، لأنها فى الواقع تنقل عن أصل موجود بتمامه فعلا ولا تبتدع ما تكتبه ابتداء .

وإن دل ذلك على شىء ، فعلى امتلاء الكاتبة بروايتها امتلاء لا مزيد عليه . ومن القرائن على ذلك الامتلاء ما تعترف به مرجريت متشل من أنها كانت تعيد كتابة الكثير من فصول الرواية مراراً كثيرة ، لأنها لا تجدها مطابقة للأصل الماثل فى ذهنها ووجدانها . ويقال أن بعض هذه الفصول قد أعادت كتابته سبعين مرة !

لقد كانت مرجريت متشل المريضة قعيدة الدار أو طريحة الفراش وهى فى إبان حيويتها تعيش تلك القصة وتتنفس فيها حيويتها المكبوتة أو الحبيسة . فكأنها فى حقيقة الأمر لم تكن تكتبها رغبة فى الكتابة ، بل كانت تكتبها تحقيقاً لذاتها . وفى هذه الحالة لا يمكن أن تقنع بأقل من الكمال كما تتصوره ، أو تحسه .

ويعزز هذا الرأى أن المؤلفة لم يجل بخاطرها طوال السنوات الست التى شغلت فيها بكتابتها أنها يمكن أن ترى النور عن طريق المطبعة لضخامتها المفرطة ولأنها غير ذات ماض معروف أو مجهول فى عالم التأليف القصصى . ولم تكن محاولات نشرها إلا من قبيل « إبراء الذمة » حتى لا تشعر بأنها قصرت فى حق عملها العزيز عليها بعد تمامه .

وشاءت الصدفة أن يقبل أحد الناشرين طبع القصة الضخمة ، فكان ذلك طالع سعد للمؤلفة والناشر معاً ! فقد اختارها نادى الشهر لجائزة أحسن كتاب ، وتفشت بين الناس موجة شغف بهذه القصة فبيع منها فى الشهور الستة الأولى أكثر من مليون نسخة فى الطبعة الغالية الثمن ، وكان البيع فى اليوم الواحد يزيد أحياناً على خمسين ألف نسخة . وفى سنة ١٩٣٧ ظفرت القصة بجائزة بوليتزر الرفيعة ، وبلغ عدد النسخ التى بيعت فى أمريكا وحدها فى السنوات الست الأولى ثمانية ملايين نسخة ، عدا ما بيع فى إنجلترا والبلاد الناطقة بالإنجليزية وفى الترجمات العديدة التى ظهرت لها فى جميع لغات العالم الغربى ، ومثلت على الشاشة الفضية حيث قامت الممثلة العظيمة فيفيان لى بدور سكارلت أوهارا ، فكانت من أطول الروايات التى أنتجتها السينما ومن أشدها رواجاً .

وهكذا هبطت الشهرة العالمية على مرجريت متشل بين عشية وضحاها ، ومعها ملايين الدولارات . وقد ثقل ذلك على نفس السيدة المحبة للاعتكاف ، ولا سيما أن الشهرة العريضة فى بلاد كأمريكا تبهظ كاهل الشهير ولا تترك له حياة خاصة هادئة ينعم بها .

ولما قامت الحرب العالمية الثانية ، أسهمت فيها مرجريت متشل على نحو ما أسهمت به ميلانى هاملتون التى كانت شخصية ملائكية فى رواية « ذهب مع الريح » ، ووقفت جهودها على التمريض فى المستشفيات العسكرية .

وما إن آذنت الحرب العالمية بختام حتى نكبت فى زوجها المحبوب ، الذى ألم به داء من أدواء القلب أقعده ، كما أصيب والدها بمرض مقعد أيضاً أضناه سنوات إلى أن مات .

وبعد ذلك بقليل وضعت الأقدار حداً لحياة

مرجريت متشل فى حادث تصادم وهى فى التاسعة والأربعين من عمرها .

ولا نحسب أن الأجل لو امتد بهذه الكاتبة كان حرياً أن يضيف إلى تراثها الأدبى شيئاً مذكوراً بعد ذلك « النجاح » العريض الذى حققته قصتها الوحيدة « ذهب مع الريح » . فقد كانت هذه القصة هى كلمتها التى فرغت رسالتها الأدبية بانتهائها منها .

والآن نترك الكاتبة لنتحدث عن عملها الباقى من بعدها .

* * *

٢ — القصة

ما من شك أن قصة « ذهب مع الريح » حققت نجاحاً يكاد يكون منقطع النظير على مستوى الذيوع بين القراء ، وتحقيق أرقام قياسية فى التوزيع والربح . ولكن ليس من الحتم أن يكون النجاح الأدبى فى مستوى واحد مع ذلك النجاح المادى . فما هى حقيقة النسيج الفنى لهذه القصة الضافية التى تتجاوز كلماتها نصف المليون ؟

إن جو الحرب من خلال قصة الحب عالجته رواية تولستوى العظيمة المترامية أيضاً والواسعة الانتشار كذلك ، ونعنى بها رواية « الحرب والسلام » . فهل نجد فيما عدا تلك المشابهة فى الموضوع مشابهة فى النسيج الفنى بين قصة مرجريت متشل وليو تولستوى ؟

من الظلم للكاتبة الأمريكية أن نقارن بينها وبين الكاتب الروسى العبقرى ، فالفرق بينها وبينه فى المستوى الفنى هو الفرق بين النبوغ والعبقرية ، فدرجة تجويدها فى فنها لا تصل إلى مستوى الحدث الخارق ، ومن الإنصاف أن نقول إنه قلما يصلح عمل قصصى من قلم أى إنسان للمقارنة بينه وبين قصة « الحرب والسلام » .

فلندع إذن هذه المقارنة القاسية لننظر فى أسلوب الكاتبة من حيث هو ، وسنجدها تستخدم طريقة الإفاضة والتكتيل والتجميع . وحين تريد أن تعبر عن معنى معين أو ظاهرة معينة ، لا تؤدى ذلك بالعبارة الموجزة النفاذة ؛ بل تؤديه بالإفاضة وتكتيل التفاصيل المختلفة التى تجمع شتاتها على تباين ألوانها .

والطريقة النفاذة تحتاج إلى طاقة فنية لماحة لدى الكاتب أو المصور ، وإلى حس مرهف نافذ لدى الجمهور ، وفى هذه الحالة لا يكون الجمهور قاعدة عريضة تنتظم الملايين ، بل يكون قلة من الصفوة أوتيت الفطنة الذهنية والوجدانية ، وتنشد ما يخاطب تلك الفطنة بحيث يزيد آفاقها سعة ويزيد أغوارها عمقاً . أما طريقة التجميع والتكتيل والإفاضة فلا تشبع الفطنة الذهنية والوجدانية ، بل تبتغى غاية أشد تواضعاً من هذه الغاية بكثير ، وهى إشباع الفضول الساذج أو شبه الساذج الذى يتسم به سواد الناس وعامتهم ، وهو فضول كالنار يتطلب على الدوام وقوداً ، ويجد حطبه فى تلك التفاصيل التى تكشف الأستار وتفضح الأسرار وكالنار أيضاً لا ينتهى نهم هذا الفضول ولا يبقى على شىء مما يلتهمه أولا بأول ، وإنما هو الاضطرام الوقتى الذى يخبو بعد انتهاء زاده المبذول من غير أن يعقب أثراً باقياً من اتساع آفاق المعرفة العقلية والنفسية ، أو ارتقاء طريقة التفكير أو تعميق الاحساس .

وهذا هو نمط الفن فى مستوياته العامية . وأنه لنمط يجد إقبالا من الناس ولكنه لا يؤثر فى حياتهم ، ولا يغير عقولهم لأنه يسير وراء تلك العقول ولا يقود زمامها بحال من الأحوال . فما أشبهه بالخادم الذى يمتع سيده ويؤدى له مطالبه ويحقق غاياته ، وينال من سيده مكافأة الاستحسان على قدر تفانيه فى إرضائه ومطاوعة هواه . وشتان هذا المقام ومقام الرائد أو المعلم أو القائد الذى لا يظفر بالرضى من الكثيرين ولا يطاوع هواهم ولكنه يغير حياتهم ويبدلها تبديلا بما يشكل من تفكيرهم وما يصوغ من وجدانهم .

ومرجريت متشل لا تملك تلك البوتقة التى تصوغ فيها النفوس والعقول ، ولكنها تقدم فناً قصصياً ممتعاً نافعاً فى المستوى الذى يستهوى عامة القارئين والقارئات فى كل مكان من أرجاء الكرة الأرضية ، لأنها تصور البشر فى روايتها على النحو الذى يفهمه العامة ولا يشق عليهم ، فيرون أنفسهم فى الصورة التى يتوقعونها . ويجدون من الأخبار والأحداث ما يستثير تطلعهم من غير مشقة عليهم فى الفهم أو التصور . لأن المؤلفة تقدم لهم كل شىء ، وتخاطب العادى من غرائزهم وإحساساتهم ، وتجيد تتبيل صحاف قصتها بالأفاوية والأباذير التى تسيل اللعاب ، ولكنها لا تضمن للآكلين حسن التغذية واكتمال العناصر وجودة الهضم .

ومن هنا كانت الإفاضة فى قصة « ذهب مع الريح » مزية لها عند هذا الجمهور العريض المتطلع إلى ما يشبع فضوله الساذج لأنه كالمائدة الحافلة من ألوان يشتهيها الآكل المنهوم .

والآن نأتى إلى خلاصة موجزة جداً لهذه القصة ضافية الذيول . . .

تبدأ القصة فى أبريل سنة ١٨٦٠ بمزرعة « تارا » فى جنوب الولايات المتحدة بالقرب من أتلانتا . فاذا مجموعة من الأسر الغنية تعيش فى المنطقة على زراعة الأرض الواسعة بكد العبيد الزنوج ، ومعظمهم على شاكلة أسرة « أوهارا » أصحاب أذواق عامية ونمط فى الحياة لا يرمى إلى شىء وراء تجميع الثروة ، والتفاخر بالمظهر وطلب اللذات ،والمقامرة والاسراف فى احتساء الخمر والتنافس على أسباب الجاه الشخصى . مع اعتداد بالسطوة البدنية والبراعة فى الصيد . فلا ثقافة ولا شغف بالفن ولا اهتمام بالموضوعات الفكرية أو الإنسانية أو المصالح التى تتعدى نطاق الإقليم الصغير ، بل لا تكاد تتعدى نطاق الأسرة والضيعة فى معظم الأحوال .

وفى مثل هذه البيئة التى تمثل الولايات الجنوبية فى أمريكا قاطبة ، يعتبر كل اهتمام يرتفع فوق هذا المستوى الشائع الضحل نوعاً من غرابة الأطوار تضعف الثقة بالشخص وتثير الريبة فيه والنفرة منه .

وبطلة القصة هى الفتاة المدللة « سكارلت أوهارا » نموذج فذ لتلك الخصائص . فهى أنثى قوية الشكيمة ، مندفعة العواطف ، لا تتورع عن شىء إذا ما اعتزمت الوصول إلى هدف تتمناه . وهى ذات جمال من نوع غير مألوف يستمد تأثيرهمن تدفق حيويتها العارمة . فهى على الجملة نموذج للأنثى الثرية القوية الانتهازية ، فى وسائلها الأنانية .

ونرى هذه الفتاة متعلقة القلب بشاب على غير غرارها ، فهو الشاة البيضاء فى القطيع الأسود كما يقولون : لأنه من ذلك النمط الذى قلنا عنه آنفاً أن بيئته الضحلة لا تستريح إلى آفاقه الفكرية والوجدانية وثقافته وحبه للفنون والأدب وفطرته الرحيمة التى تناقض الأنانية والانتهازية والاعتداد بالقوة الغاشمة . وفى هذا الحب يتجلى تناقض القلب البشرى ، وانجذاب المرء إلى نقيضه فى خصائص الطباع .

وتندلع الشرارة الأولى فى القصة حين تعلم « سكارلت أوهارا » أن الشاب الذى تحبه — واسمه آشلى ويلكس — خطب لنفسه فتاة هادئة الطباع ، رقيقة الحاشية ، اسمها « ميلانى هاملتون » ، لئن كانت سكارلت أشبه بالنار المتأججة فان ميلانى أشبه بنور القمر الساجى . وتثور ثائرة سكارلت ذات الطبع النارى ، ولا تعرف عندئذ وازعاً يردعها من اعتبارات الحياء الأنثوى والاحتشام المفروض فى بيئتها الريفية المتزمتة ، وتختار وسيلة الهجوم العنيف على القلعة التى تريد الاستيلاء عليها ! لقد خطر لها لغرورها وأنانيتها أن آشلى لم يتقدم إليها إلا يأساً من استجابتها له . فصممت أن تنتهز فرصة الحفل الراقص الذى سيقام بضيعة آل ويلكس قبل إعلان الخطبة ، كى تفتنه وتغريه بالفرار معها تاركاً خطيبته التى ستحضر ذلك الحفل قبل إعلان النبأ ، فيهرب معها ويتزوجان سراً .

وما عليها من الضجة والفضيحة إن هى فازت بمن يهواه فؤادها .

وكانت تلك الحفلة على غرار الحفلات فى ضياع ذلك العهد، تستغرق صدر النهار وهزيعاً من الليل . وإذا الحفل النهارى يفتح باباً جانبياً فى القصة لا يلبث أن يلتهمها جميعاً ، هو باب الأزمة السياسية بين ولايات الشمال وولايات الجنوب . فقد أخذ الرجال والشبان يتناقشون فى تلك الأزمة وتطوراتها ويتبارون فى التحمس لمقاومة قرارات الاتحاد ، التى صمم الرئيس لنكولن على تنفيذها بكل دقة ، وهى وجوب تحرير العبيد . فمعنى ذلك فى نظرهم انهيار تلك الإمبراطوريات الزراعية وضياع سطوة الجنوب واندثار أسره الغنية لقيام كيانهم على الزراعة وحدها . فليس فى الجنوب صناعات كتلك التى يزخر بها الشمال . وتجتمع كلمتهم على شق عصا الطاعة وإعلانها حرباً . وقد صورت لهم حماستهم أن سطوة الأعيان وقدرتهم على استخدام السلاح أفراداً ، فى حفلات الصيد كافية لكسب المعارك فى الحروب . ويحاول آل ويلكس معالجة النقاش بالحكمة والاتزان والثقافة على المستوى القومى والإنسانى ، ولكن بغير جدوى . ويبرز فجأة شخص عنيد جرئ إسمه « رت بتلر » حنكته التجارب فيجابه سادة الجنوب بالحقائق الواقعية عن قوة الشمال وما لديه من عناصر عسكرية تكفل له سحق عصيان الجنوب ، فيثور القوم به وتكاد تقع ملاحاة تتشابك فيها الأيدى والسيوف ، لولا حكمة رب الدار ولباقته . وينزوى الرجل بعيداً فى انتظار إتمام صفقة من القطن مع آل آشلى جاء خصيصاً إلى هذه المنطقة كى يعقدها ، وتمضى المناقشة بين الضيوف ورب البيت وابنه آشلى ، فيبدى آشلى فى النهاية عدم اقتناعه بموقف مواطنيه ، إلا أنه يقف إلى جانبهم ما داموا قد أجمعوا الرأى على خوض الحرب ، فكأنه فى ذلك الموقف يعيد سيرة ذلك الشاعر الجاهلى القديم « دريد بن الصمة » القائل :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت
غويت ، وإن ترشد غزية أرشد !

وسكارلت أوهارا تضيق بذلك كله فحقوق الجنوب واستقلاله عندها قضية مسلمة ، لا تتصور أن تكون محل « تطفل » من الشماليين الغرباء . وهى على كل حال مشغولة بأزمة أهم فى نظرها من ذلك الهراء الذى يخوض فيه الرجال باندفاع ، فتنتهز الفرص إلى أن تجتذب آشلى إلى داخل حجرة جانبية مظلمة فى الدار – والرجال فى الحديقة والنساء يلتمسن الراحة فى المخادع ساعة القيلولة – كى تعلن عليه الحب ! وتدعوه فى إلحاح جارف أن يهرب معهاعلى الفور لأنها تريد « إنقاذه » من الزواج بفتاة يتوهم أنه يحبها وهى واثقة أن حبه الحقيقى لها هى . ويردها آشلى رداً حازماً وإن كان رفيقاً متلطفاً ، ثم يتركها وهى تكاد تنشق من الغيظ والقهر . وإذا الرجل الذى صدم مشاعر أهل الجنوب بآرائه السياسية « الوقحة » يبرز لها من ركن معتم كان غافياً فى مقعد ضخم به ، ويسخر منها فيزداد شعورها بالقهر والغيظ وتحقد عليه لأنه رأى ذلها وهزيمتها رأى العيان وكانت تظن أن كبرياءها ستظل بمنجاة عن كل إنسان عدا حبيبها الذى تثق بخلقه ، أما الآن فقد تمت فضيحتها وتعرضت للهوان،وهى المغترة بجمالها الأنثوى غروراً ليس له حد . ومنذ هذه اللحظة ينعقد بينها وبين « رد بتلر » لون فريد من المناجزة والتحدى . « فرد بتلر » على عكس حبيبها « آشلى ويلكس » لأنه من نمط أشبه ما يكون فى الرجال بنمطها فى النساء . فهو عنيد ، قوى الشكيمة، مندفع ، عارم الحيوية أنانى انتهازى ، لا يتورع عن شىء إذا ما عقد العزم على الوصول إلى هدف يتغياه .

ويزداد الموقف العاطفى تشابكاً على الفور ، بالتقاء سكارلت فى ذلك الحفل نفسهليلا بشقيق خطيبة آشلى ، وهو شاب ساذج سطحى يفتقر إلى الذكاء

والحيوية معاً ، سهل القياد ، فيفتن بشخصيتها النارية ، وتجد فيه الفتاة المندفعة ما يداوى هزيمتها ويجعلها مستقبلا قريبة الصلة بحبيبها الذى تأبى عليها .

وفى جو الاستعداد لخوض الحرب بين الجنوب والشمال وتدفق شبان العائلات الكبيرة الثرية على معسكرات التدريب تعجلت « سكارلت أوهارا » فى اندفاع أرعن زواجها من ذلك الشاب المخدوع فيها ، واسمه « تشارلس هاملتون » بعد أسبوعين من إعلان خطبة آشلى على ميلانى . وبعد الزواج بقليل جداً رحل الزوج مع أنداده إلى المعسكرات ثم إلى الميدان . ويشاء القدر أن يموت بعد شهرين فيترك سكارلت أرملة لا هى بالفتاة ولا هى بالزوجة ولما تزل فى ربيعها السادس عشر ، ولا هى بالأرملة الحقيقية لأنها لا تشعر فى أعماق سريرتها بالحزن على ذلك الذى لم يكن زوجها إلا فى أضيق الحدود . وضاقت بتقاليد الجنوب التى تفرض حداداً ثقيلا على الأرامل ، فكانت طبيعتها النارية تتربص الفرص للافلات من هذا الاسار .

وزاد من ضيقها أنها ألفت نفسها حاملا ، كأنما ذلك الزوج الذى لم يكد يكون زوجاً بالمعنى الصحيح ، يأبى إلا أن يكبلها بنتائج حماقتها وغشها . ووضعت يدها على قلبها عندما رحل آشلى أيضاً إلى الميدان ، بعد أن أوصى سكارلت بزوجته لأنه يعلم ما فى صحتها من رهافة ، وما فى طبيعتها من دماثة وقلة حيلة فى أوقات الحرب العصيبة .

وهكذا عاشت سكارلت جنباً إلى جنب مع المرأة التى هزمتها فى معركة الحب وهى لا تدرى ، وكانت إقامتهما معاً بحكم النسب ، وتفرغت المرأتان لما تفرغت له زوجات المحاربين فى الجنوب من أعمال التمريض فى المستشفيات العسكرية التى غصت بآلاف الجرحى فى أسوأ ظروف مع ندرة العقاقير ووسائل العلاج والجراحة . وكانت هذه المهمة قريبة إلى قلب ميلانى العطوف المؤثرة على نفسها ، أما سكارلت الأنانية المشغولة بنفسها فكانت تضيق بذلك الجو الذى لا يروقها ، لأنها خلقت لتلمع لا لتخدم ، ولتتمتع لا لتنكر ذاتها فى سبيل الآخرين .

ولم تزدها الأيام إلا إصراراً على حبها الذى عاندتها فيه الأقدار ، لأن من كان لها مثل تكوينها تزيدها المقاومة إصراراً واندفاعاً ، وعولت على أن تسلبه من زوجته فى مقبل الأيام بأى صورة من الصور ، بعد أن تضع هذه الحرب أوزارها ، ويعود المحاربون سالمين إلى حياتهم المدنية ظافرين ، فلم يكن يخالجها أو يخالج أهل الجنوب — حتى ذلك الحين — شك فى النصر .

بيد أن وقائع الحرب لم تلبث أن زعزعت ذلك الإيمان الوطيد شيئاً فشيئاً ، وتضاعف عدد الجرحى وتوالت الانكسارات ، وقلت احتمالات كسب الحرب وترتبت على ذلك أزمات شداد فى الأقوات والأكسية والعقاقير ، وتعرضت المنازل للتدمير بفعل القنابل فى الغارات المتعاقبة ، وتكدس القطن فى مخازن الجنوب بعد أن فرض أسطول الشمال حصاراً على الموانىء ، فعم الكساد والفساد وازدهرت السوق السوداء .

وفى الوقت الذى نضبت فيه ثروات أصحاب الضياع الواسعة ، وضربت فيه كثير من هذه الضياع بوقوعها فى طريق الجيوش المتحاربة ، ظهرت طبقة جديدة من أثرياء الحرب ، وهم نفر لا خلاق لهم من الانتهازيين احترفوا تهريب البضائع والاتجار فى مصائب الخلق واحتياجاتهم الضرورية ؛ بأفدح الأثمان فى السوق السوداء . ومن هذه الفئة التى أثرت ثراء فاحشاً ، « رد بتلر » خصمها اللدود الذى يضاهيها فى المعدن العقلى والخلقى ، فتردد على البيت وبدأت بينه وبين الأرملة الحسنـــاء صلة غريبة قوامها التحـــدى والتجاذب والعناد والفهم المتبادل فى آن واحد .

وفى هذه الظروف الضيقة أغرقها رد بتلر بهداياه . فظنته يرمى إلى الزواج منها ، ووجدتها فرصة مواتية وقد أصبح من ملوك السوق السوداء ذوى النفوذ والجاه فى دوائر السياسة والإدارة . ولكنها فوجئت بحقيقة جرحت كبرياءها مرة أخرى : أنه يريدها عشيقة لا زوجة !

وتزداد ويلات الحرب ويطلب إلى سكان أتلانتا إخلاءها وإذا بيلانى زوجة آشلى يأتيها المخاض ، فتقف سكارلت إلى جانبها وتأبى أن تتخلى عنها بعد أن هرب الجميع ، فاذا تحت عناصر الأنانية عنصر من النخوة يربطها بغريمتها التى كسبت احترامها بسلوكها الملائكى ، وإكراماً فى الوقت نفسه للحبيب الذى ائتمنها على وديعته الغالية . وتتولى سكارلت الإشراف على توليدها بمفردها وتقف إلى جانبها بارادة الرجل شديد المراس وصلابته ، وبعطف الأم الحانية .

وهكذا يبدأ طور جديد فى حياة سكارلت ، إذ تكتشف نفسها ، وما أوتيته من قوة تؤهلها للقيادة والرعاية والثبات فى الشدائد وحماية الضعفاء ، وعلاج شىء من الآثار المدمرة التى تركتها الحرب فى ذلك الجنوب المنكود الطالع .

ويظهر بتلر مرة أخرى فى أفق حياتها فيساعدها وميلانى على الهروب فى أحرج الظروف قبيل دخول جيوش الشمال إلى المدينة بساعات قلائل أو دقائق ، وتأخذ سبيلها إلى مزرعة أبيها تارا بعد أن لقيت من الأهوال ما لا يتصوره العقل ، فاذا هى تجدها خراباً بلقعاً بعد أن دمر الأعداء البيت والمخازن ، وتجد والدها وأمها قد ماتا ، أما أختاها الصغيرتان ففى طور النقاهة من التيفود . وقد صار عليها بمفردها أن تتولى إطعام هذه المجموعة من « الرعايا » العاجزين المرضى ، وهم شقيقتاها وميلانى وابنها وابن ميلانى .

ومرة أخرى تكتشف تحت ضغط الشدائد استعداداتها الكامنة فى العمل والمقاومة ، فاذا هى وهى المرفهة المدللة تعمل فى الحقل بيديها كالعبيد ، ولا تتورع عن القتل كلما وقع فى يدها جندى من الأعداء كى تحمى رعيتها الصغيرة وتكفل لهم البقاء على قيد الحياة بما يسد رمقهم .

والجزء الأخير من الرواية صورة ذلك الكفاح البناء ، وفيه نراها بعد أن وضعت الحرب أوزارها تصدم المجتمع الريفى المحافظ بانبرائها إلى ميدان العمل التجارى فى منشر للأخشاب ، ولا تبالى فى هذه السبيل أن تتزوج من شخص لا تحبه ولكنه يملك من المال ما يحقق لها مطامعها فى العمل التجارى الواسع بعد أن ضاعت من يدها ضيعة تارا ، وقد استغرقتها الضرائب المتأخرة بعد هبوط إنتاجها إلى ما يقرب من الصفر .

وبعودة آشلى تتحرك أطماعها فيه . وتستغل ظروف احتياجه بعد تدمير ضيعته فتجعله شريكاً ولا تدخر وسعاً لاستمالته واغوائه ، فلا يزداد إلا ثباتاً وتأبياً .

ويتزوجها رد بتلر أخيراً بعد أن وفت له حين حبس رهن التحقيق بتهمة الخيانة والتهريب ، وكان زوجها الثانى قد مات عنها . وبعد ذلك تنتهى الرواية نهاية قاسية . فقد وجدت فى « رد » بعد زواجها منه صنوها ، واكتشفت أنها تحبه حب الند لنده والقرين لقرينه . ولكن قلب رد بتلر تحول عنها على أثر ملاحاة كثر فيها العناد بينهما وهجرها . إلا أن سكارلت لا تسلم بهزيمتها ، ويكون السطر الأخير فى الرواية أنها لن تيأس ، وأنها ستعيش لتسترد قلب ذلك الرجل وأن الغد فيه متسع لكل شىء ، فكأنها بذلك تعبر عن طبيعتها القوية التى تؤمن بأنه لا يأس مع الحياة :

٣ — مقتطفات من الرواية

— جلس التوأمان على جانبيها مسترخيين فى مقعديهما ، يرمقان أشعه الشمس من خلال الأكواب العالية المملوءة بشراب النعنع وهما يضحكان ويتحدثان عاقدين أرجلهما الطويلة بلا مبالاة وقد انتعلا أحذية

ركوب ذات أعناق ترتفع إلى الركبتين . وكلاهما فى التاسعة عشرة ، وارتفاع قامتهما ستة أقدام وبوصتان ، مع قوة فى العضلات وبشرة لوحتها الشمس ، وعينين مرحتين متعجرفتين وثياب متماثلة تمام التماثل تتكون من سترتين زرقاوين وسروالين للركوب فى لون الخردل ، فهما متماثلان تماثل اللوزتين من القطن الذى تحفل به مزارع الجنوب . . وفى الخارج كان جوادا التوأمين مربوطين معاً ، وهما دابتان ضخمتان حمراوان كشعر صاحبيهما ، وحول قوائمهما تتعارك ثلة من كلاب الصيد النحيلة ذات التكوين العصبى التى تصحب التوأمين ستيوارت وبرنت أينما توجها . . وبين كلاب الصيد والجوادين والتوأمين آصرة أعمق من تلك المصاحبة المستمرة ، فهم جميعاً ذوو حيوية وفراهة حيوانية ورشاقة ومرح . فالشابان فى مثل توثب الجوادين اللذين يمتطيانهما . وأنه لتوثب ينذر بالخطر ولكنه يسلس قياده لمن يعرفون كيف يسوسونهما كما تساس الجياد سواء بسواء .

– كان الغرور أقوى من الحب فى سن السادسة عشرة ، فلم يعد فى قلبها بعد هزيمتها موضع الآن لشىء خلا البغض . وقالت لنفسها :

– لن أعود إلى البيت . سأبقى ها هنا وسأجعلهم يأسفون على فعالهم ، ولن أخبر أمى ، كلا لن أخبر أحداً !

وراضت نفسها على فكرة الدخول إلى البيت والصعود فوق درجات السلم مرة أخرى كى تدخل مخدعاً آخر من مخادع النوم . وفيما هى تستدير لتدخل رأت تشارلز قادماً من الطرف الأقصى للبهو الطويل ، فلما رآها أسرع نحوها . وكان شعره مشعثاً ووجهه قريباً من لون زهرة الجيرانيوم من فرط توفزه العصبى ، وصاح بها قبل أن يصل إليها :

– أتعلمين ماذا حدث ؟ هل سمعت ؟ لقد وصل بول ويلسون لتوه من جونسبورو حاملا آخر الأنباء !

وتوقف عن الكلام وقد تقطعت أنفاسه إذ وصل إليها ، ولم تقل شيئاً بل كان قصاراها أنها حملقت فيه صامتة ، فأردف :

– لقد وجه مستر لنكولن نداء للتطوع فى صفوف الجنود . فتطوع منهم خمسة وسبعون ألفاً !

مستر لنكولن مرة أخرى أليس فى مقدور الرجال أن يفكروا فى شىء آخر له وزن حقيقى ؟ ! وها هو هذا الغر يتوقع منها أن تتوفز لسماع أنباء ألاعيب مستر لنكولن التافهة فى حين أن قلبها يتنزى بما أصابه من تحطيم وسمعتها قد أضحت فى حكم المقضى عليها !

وحدق فيها تشارلز فألفى وجهها يحاكى فى بياضه لون الورق . وعينيها الضيقتين تتوهجان كزبرجدتين . ولم يكن رأى فى حياته قط مثل تلك النار المتأججة فى طلعة فتاة ومثل ذلك الوهج فى عينى أى إنسان ، فقال لها مترفقاً :

– ما أسوأ تصرفى . كان ينبغى أن أنفض إليك النبأ بمزيد من التلطف ، وقد أنستنى المفاجأة ما تتمتع به السيدات من رهافة ، وإنى لآسف أشد الأسف لإزعاجك على هذا النحو . أتشعرين أنك على وشك الاغماء ؟ هل آتيك بكوب من الماء ؟

فقالت له وهى تتكلف ابتسامة عرجاء :

– لا .

فسألها وهو يتناول ذراعها فوق ذراعه :

– أتحبين أن نذهب فنجلس على مقعد فى الحديقة؟

فأومأت برأسها منعمة ، فمشى بها فى هوادة وعناية فأهبطها الدرج الأمامى وقادها عبر الحشائش إلى مقعد من الحديد قائم تحت أضخم بلوطة فى الفناء الأمامى ، وقال فى نفسه :

– ألا ما أضعف النساء وأرقهن ! فان محض الإشارة إلى الحرب والعنف تسلمهن إلى الإغماء !

وجعلته هذه الفكرة يشعر بفرط ذكورته فضاعف من رقته وهو يجلسها . وبدت فى تلك اللحظة فى منظر غريب ، فقد اكتسى وجهها الأبيض جمالا وحشياً فيه ضراوة فأخذ قلبه يدق بعنف . فهل تراها تشعر بالتعاسة لاحتمال مضيه إلى ساحة القتال ؟ كلا . إن ذلك الاعتقاد يتطلب منه غروراً أشد مما ينبغى . ولكن إن لم يكن هذا صحيحاً فلماذا تنظر إليه هذه النظرة العجيبة ؟ ولماذا ترتجف يداها وأناملها تعبث بمنديلها المزركش الصغير المحلى بالمخرمات ؟ ولماذا ترف أهدابها الغزيرة الطويلة كما ترف أهداب مقل الفتيات فى الروايات العاطفية التى قرأها ، فتتكشف عن وميض ينم على الحياء والعشق ؟

— وفكرت سكارلت بسرعة خاطفة ، وارتسمت فى ذهنها ومضات خطة تنتهجها ، قائلة لنفسها :

— إنه على ثراء طائل ، وليس له أبوان يضيقان أنفاسى ، وهو مقيم فى أتلانتا . فان تزوجته على الفور أقمت الدليل لآشلى على أننى لا أبالى به جناح بعوضة ، وأن ما قلته له لم يكن إلا عبثاً من قبيل المجون اللاهى . . وكم ستتألم ميلانى لأنها تحب أخاها تشارلز حباً جماً . وسيتألم أيضاً ستيوارت وبرنت .

ولم تكن تدرى على التحقيق لماذا تريد أن تؤلمهما ، اللهم إلا لأن لهما شقيقات خبيثات الطوية . .

— . . . وسيشعر الجميع بالحسرة عندما أعود إلى هنا زائرة فى مركبةفاخرة تجرها خيول مطهمة وقد صارت لى مقادير هائلة من الثياب الجميلة ، وبيت خاص بى . وعندئذ لن يضحكوا منى !

— عادت سكارلت من المستشفى إلى البيت مجهدة غاضبة ، فقد أتعبها الوقوف على قدميها طوال فترة الصباح وأثار سخطها توبيخ مسز ميريويذر لها توبيخاً عنيفاً لجلوسها فوق فراش أحد الجنود الجرحى وهى تضمد له ذراعه . وكانت العمة بتى وميلانى لابستين خير قلانسهما وواقفتين عند شرفة المدخل مع ويد وبريسى على أهبة القيام بدورتهما الأسبوعية لأداء الزيارات ، فطلبت إليهما سكارلت أن يعفياها من اصطحابهما وصعدت إلى حجرتها الخاصة . ولما تلاشى آخر صوت لعجلات العربة وأيقنت أن الأسرة كلها غابت عن ناظريها استشعرت الأمان وتسللت بهدوء إلى حجرة ميلانى وأدارت المفتاح فى قفلها . وكانت حجرة جادة عذرية صغيرة يسودها الهدوء والدفء تحت أشعة شمس الساعة الرابعة بعد الظهر ؛ فالأرض لامعة عارية إلا من بسط قليلة صغيرة براقة ، والحيطان البيضاء خالية من الزينة ما عدا أحد الأركان ، فقد أعدته ميلانى على صورة محراب ؛ فهنا تحت علم ولايات الجنوب المتحالفة علق سيف ذهبى المقبض كان والد ميلانى يحمله فى الحرب المكسيكية ، وهو بعينه السيف الذى تقلده تشارلز حين مضى إلى ساحة القتال . وثمة أيضاً حزام غدارة تشارلز وفيه مسدسه الدوار . وفيما بين السيف والمسدس صورة تمثل تشارلز نفسه فى بزة عسكرية رمادية اللون ، وقد بدا مزهواً بها ؛ وهو ينظر بعينين واسعتين بنيتين لامعتين وعلى شفتيه ابتسامة حيية ؛ تطل مشرقة من إطار الصورة .

ولم تكلف سكارلت نفسها إلقاء نظرة على تلك الصورة بل اجتازت الحجرة بغير تردد إلى مكان به صندوق من خشب الورد فوق المنضدة المجاورة للفراش الضيق ، ومن ذلك الصندوق استخرجت حزمة من الرسائل مربوطة بشريط أزرق وموجهة بخط آشلى إلى ميلانى . وفوق قمة تلك المجموعة الخطاب الذى وصل هذا الصباح ؛ فتناولته وفضته . ولم تشعر سكارلت قط ، بعد أول مرة شرعت فيها تقرأ تلك الرسائل سراً بتأنيب ضمير ؛ أما فى المرة الأولى فكان خوف افتضاح أمرها يكاد يعجز أصابعها المرتجفة عن فض أغلفة تلك الرسائل ؛ بيد أن الألفة نزعت ذلك الخوف من قلبها فلم يعد يشغلها عما هى بسبيله شاغل !

— لقد ارتد الجيش إلى فرجينيا مثخناً بجراح الهزائم وبدأ موسم عيد الميلاد فى الاقتراب ، فعاد آشلى فى أجازة ، وما إن رأته سكارلت لأول مرة بعد انقضاء أكثر من سنتين حتى أفزعها عنف مشاعرها . . فقد أرهفت انفعالاتها أحلامها الطويلة به وزاد من حدتها ذلك الكبح الذى كان لا بد لها أن تسومه لسانها . فآشلى ويلكس الماثل أمامها رجل يختلف عن ذلك الفتى الناعس الطرف الذى أحبته حب اليأس قبل نشوب الحرب ، إنه اليوم أفتن ألف مرة مما كان ، فهو الآن نحيل القوام برونزى اللون ، وكان عهدها به من قبل شديد الشقرة ، وهذا الشارب الذهبى الطويل المتدلى حول فمه على طراز فرسان الخيالة هو اللمسة الأخيرة التى كان يفتقر إليها كى تجعل منه صورة مكتملة للجندى المحارب . . .

وكانت سكارلت قد أعدت خطتها لقضاء عيد الميلاد فى ضيعة تارا ، بيد أنها بعد وصول برقية آشلى صممت على البقاء وما كان فى وسع أى قوة على الأرض أن تزحزحها عن أتلانتا . ولو أن آشلى كان ينوى الذهاب إلى ضيعة البلوطات الاثنتى عشرة ، لسارعت إلى ضيعة تارا كى تكون بقربه ، أما وهو قد كتب إلى أسرته كى تلحق به فى أتلانتا فلا بد من بقائها فيها . أم تراها تذهب إلى تارا وتفوت على نفسها فرصة رؤيته بعد عامين طويلين ؟ وتضيع على نفسها سماع جرس صوته الذى تتسارع له دقات قلبها ، وقراءة المعنى الذى تتمناه فى عينيه ، وهو أنه لم ينسها ؟ كلا ! هذا لن يكون ولو كرهت أمهات العالم أجمع !

— ها هى قد أضحت فى حجرة واحدة مع آشلى مرة أخرى ! كيف بالله أمكنها أن ترى فى هاتين السنتين شيئاً من الحسن أو الوسامة أو اللطف أو الجاذبية فى رجال آخرين ؟ بل كيف وسعها أن تطيق سماعهم يغازلونها ويتقربون إليها وآشلى على وجه الدنيا ؟ ها هو قد عاد وبات لا يفصله عنها إلا عرض هذا البساط الصغير ، واستنجدت بكل طاقتها من الجلد حتى لا تنخرط فى دموع السعادة كل ما نظرت إليه فرأته جالساً هناك على الأريكة وميلانى إلى أحد جانبيه وأخته إنديا إلى جانبه الآخر . آه لو كان من حقها أن تجلس هناك إلى جواره وتعقد ذراعها بذراعه ! آه لو كان فى وسعها أن تربت كمه كل بضع دقائق لتتأكد أنه موجود إلى جوارها فعلا ، وتمسك بيده وتستخدم منديله فى تجفيف دموع فرحها ! فان ميلانى تصنع هذا كله بغير حياء ! فهى أسعد من أن تشعر بالخجل أو الاحتجاز ، وتتعبد إليه جهاراً بنظرات عينها وبابتساماتها وبدموعها . وسكارلت تطغى عليها سعادتها فلا تدع لها قدرة على الاستياء أو السخط أو الغيرة ؛ فثمة حقيقة واحدة تملك عليها آفاق شعورها : إن آشلى عاد أخيراً إلى بيته !

ولما قالت طابت ليلتكما رأت وجنتى ميلانى تصطبغان فجأة بلون القرمز وأخذ جسدها يرتجف . ولم ترفع ميلانى بصرها عن الأرض عندما فتح آشلى باب حجرة النوم ، بل اندفعت تعدو إلى داخلها ، ثم ألقى آشلى تحية المساء باقتضاب ولم تواجه عيناه عينى سكارلت أيضاً . وأغلق الباب خلفهما تاركاً سكارلت فاغرة الفم نهباً لوحشة مفاجئة . إن آشلى لم يعد لها . إنه لميلانى . ولن يكون من حقها ماعاشت ميلانى أن تدخل مع آشلى حجرة من الحجرات وتغلق بابها ، فتوصده فى وجه سائر ما فى الدنيا !

— لن يكون ثمة مطلقاً عصر يوم أطول من عصر ذلك اليوم ، أو مثيله فى الحرارة ، أو صنوه فى الازدحام بالذباب الكسول الصفيق الوقح . وقد كان الذباب يتكاثر فوق ميلانى على الرغم من المروحة التى كانت سكارلت تحركها بلا انقطاع حتى لقد آلمها ذراعها من طول عكوفه على التلويح بتلك الورقة العريضة من سعف النخل الهندى ، فكأن كل جهودها كانت تذهب سدى ، لأنها حين تهش الذباب عن وجه ميلانى

المخضل بالعرق ، كان ينقض على قدميها وساقيها فتحركهما فى ضعف وتصيح فى إعياء .

— ذبيه عن قدمى من فضلك !

وكانت الحجرة فى حالة شبه ظلام ، لأن سكارلت كانت قد أغلقت المصاريع الخشبية لتحجب الحرارة ووهج الضوء، ولكن حزماً صغيرة من أشعة الشمس فى حجم رأس الدبوس كانت تتسرب من ثقوب صغيرة فى المصاريع وعند الحافة ؛ فما كان أشبه الحجرة بأتون، حتى أن ثياب سكارلت الغارقة فى العرق لم تكن لتجف أبداً ، بل تزداد بللا ولزوجة بمرور الساعات . والخادمة الزنجية بريسى مقعية فى ركن منها تتصبب عرقاً أيضاً تفوح له رائحة كريهة حتى أن سكارلت كانت قمينة أن تخرجها وتغلق الباب لولا أنها تخشى أن تركن الفتاة لأذيال الفرار بمجرد تواريها عن الأنظار . وميلانى مستلقية على الفراش فوق ملاءة غدت قاتمة من كثرة نضح العرق وبقع الرطوبة ، تتلوى بلا انقطاع متقلبة من هذا الجانب إلى ذاك الجانب ، يسرة ثم يمنة ثم تنقلب يسرة أخرى . وكانت فى بعض الأحيان تحاول أن تجلس ولكنها ترتمى بعد برهة وجيزة على ظهرها وتشرع فى التقلب كسابق شأنها . واجتهدت فى البداية أن تتحرز من الصراخ فكانت تعض شفتيها إلى أن تتورما فتصيح بها سكارلت التى أنهكت أعصابها بصوت أجش :

— أناشدك الله يا ميللى : لا تتصنعى الشجاعة ؛ إن راودتك نفسك على الصراخ فاصرخى ، فليس فى هذه المنطقة أحد يسمعك سوانا ! وبعد أن انسلخت من بعد الظهر فترة أخذت ميلانى تئن سواء أرادت أن تتظاهر بالشجاعة أو لم ترد ، وأطلقت صرخات متباعدة فكانت سكارلت تدفن رأسها بين يديها وتغطى أذنيها ويتلوى جسدها وتتمنى لنفسها الموت . فأى شيء أفضل لها من أن تكون شاهدة لا حول لها ولا طول لمثل هذا الألم ، أى شيء أفضل من وجودها كالمكبلة فى تلك الحجرة انتظاراً لمقدم طفل يأبى إلا أن يتباطأ فى القدوم؛ فى الوقت الذى تعلم أن جنود الشماليين على مسيرة أميال قليلة جداً من المدينة ؟

وتمنت أيضاً من أعماق قلبها لو أنها كانت ألقت أذناً واعية للأحاديث التى كانت العقيلات المتقدمات فى السن يتهامسن بها حول موضوع المخاض والولادة . ليتها فعلت ذلك ! إذن لكان اهتمامها بهذه الأمور كفيلا أن يجعلها الآن تحسن تقدير موقف ميلانى وتتبين هل تأخر تمام المخاض أو لم يتأخر عن الأوان المفروض ؟ ولكن أمور الأمومة لم تكن تعنيها فى أى وقت من أوقات حياتها من قبل . وكل ما تذكره فى غموض؛ ما سمعته من العمة بتى عن صديقة لها فى الزمن السالف ظلت تعانى المخاض يومين وليلتين ثم ماتت فى النهاية من غير أن تضع جنينها، فماذا لو أعادت ميلانى ذلك التاريخ القديم وواصلت المخاض يومين وليلتين ! ولكن ميلانى رقيقة التكوين ولا يمكن أن تتحمل يومين من هذا العذاب الوجيع ، ولا شك أنها ستقضى نحبها وشيكاً إن لم يعجل ذلك الطفل بالبروز إلى الدنيا ، وكيف عساها تواجه آشلى لو عاد حياً وصار عليها أن تخبره بوفاة ميلانى بعد أن تعهدت له برعايتها ؟

— وفى ذلك الصيف الدافىء الذى أعقب إعلان السلم غدت مزرعة تارا محط رحال الكثيرين وفقدت فجأة عزلتها التى غلفتها فى سنوات الحرب ، وظلت أسراب من رجال كفزاعات الطيور، ذوى لحى وعليهم أسمال بالية تورمت أقدامهم الحافية من السير فوق الأرض الملتهبة تتقاطر على مدى شهور كثيرة ليعلن أصحابها أن الجوع كاد يأتى عليهم وأنهم صعدوا التل الأحمر إلى تارا ليجدوا فى ظلال أشجارها شيئاً من الراحة وفى كرم ربة الضيعة ما يكفل لهم الطعام والمأوى ولو لليلة واحدة . وكانوا كلهم من جنود الولايات الجنوبية المتحالفة المسرحين عائدين أشتاتاً وشراذم إلى بيوتهم التى قوضتها الحرب . وكان القادمون الأول هم

البقية الباقية من جيش جونستون قادمين من كارولينا الشمالية إلى أتلانتا ومن أتلانتا إلى تارا . ولما انتهت موجة رجال جونستون بدأت موجة جديدة قوامها أفواج من جيش فيرجينيا . وفى أعقاب هؤلاء جنود من الفرق الغربية متجهين صوب الجنوب إلى ديارهم التى قد لا يجدونها وأسرهم التى قد تكون تشتت أو عدا عليها الفناء . وبين هؤلاء المنكودين قلة قليلة تركب بغالا بارزة العظام سمحت لهم شروط التسليم بالاحتفاظ بها ، وكلها دواب منهكة القوى تستطيع العين غير المدربة أن تجزم بأنها لن تصل براكبيها إلى فلوريدا أو جورجيا الجنوبية .

عائدون ! عائدون ! هذه هى الفكرة الوحيدة التى استولت على أذهان الجنود . وكان بعضهم حزانى صامتين وبعضهم الآخر مرحين مستهينين بالمشاق والصعاب ، ولكن القصيدة التى كانت تمدهم جميعاً بالقوة وتدفعهم لمواصلة المسير والاستمرار فى الحياة هى فكرة العودة إلى ديارهم . وقليلون منهم من كانت نفوسهم تنضح بالمرارة فهم قد تركوا التشدق بالمرارة للنساء والمسنين من الرجال ، أما هم فقد قاتلوا قتالا شريفاً وأبلوا فيه بلاء حسناً ، ولكنهم هزموا ،وهم الآن مستعدون للتسليم بالواقع والاخلاد إلى زراعة أراضيهم فى ظل الراية التى حاربوها !

— كانت الشمس قد توارت تماماً عندما وصلت إلى منعطف فى الطريق المفضى إلى « شانتيتاون » والغابة من حولها حالكة الظلام ؛ وباختفاء الشمس ران على الدنيا برد قارس وأخذت الرياح الثلجية تهب خلال الأشجار فتتكسر تحت وطأتها الأغصان العارية وترسل الأوراق الجافة الميتة المكدسة على الأرض وسوسة خشنة ، ولكن سكارلت قد خرجت من قبل إلى الخلاء بمفردها فى مثل هذه الساعة المتأخرة ، فشعرت بعدم ارتياح يساورها ،وتمنت لو كانت الآن فى بيتها :

ولم يقع نظرها على أثر لسام الكبير فى الموضع المنتظر ، فجذبت العنان لتنتظره وقد أقلقها غيابه خشية أن يكون جنود الشمال قد تصيدوه كشأنهم مع محاربى الجنوب القدماء ، ثم سمعت وقع أقدام قادمة على الدرب من جهة المساكن فندت من شفتها زفرة ارتياح وعولت على أن توبخ سام لإبقائه إياها فى انتظاره فى تلك الساعة . ولكن القادم عند زاوية المنعطف لم يكن سام ، بل كان رجلا أبيض ، ضخم الجسم ، مهلهل الثياب ، وفى صحبته زنجى أسود له كتفان وصدر أشبه بكتفى الغوريلا وصدرها ، وعلى الفور ضربت ظهر الحصان بأعنة اللجام وأرخته من يدها وشهرت مسدسها وطفق الحصان يركض ولكنه أجفل فجأة عندما مد الرجل الأبيض يده قائلا إنه يريد منها ربع دولار لأنه جائع ، فأجابته وهى تحاول أن تجعل صوتها يبدو ثابتاً قدر المستطاع :

— ابتعد عن طريقى ؛ فليس معى نقود يا صاح :

وبحركة سريعة مفاجئة استولى الرجل على زمام الحصان وصاح بالزنجى :

— جرها إلى الأرض وفتشها جيداً ! فلعلها تخفى نقودها فى صدرها !

وكان ما حدث بعد ذلك أشبه فى حسبان سكارلت بالكابوس ، وقد حدث كل شيء بسرعة مذهلة : وكانت غريزتها قد ألهمتها ألا تطلق نار مسدسها على الرجل الأبيض خشية أن تصيب جوادها ، وفيما كان الزنجى الهائل يهجم عليها كاشفاً عن أسنانه البيضاء بابتسامة كالحة أطلقت عليه الرصاص « فى المليان » . ولم يتسن لها أن تدرى هل أصابته أو لا ، وكل ما تعلمه أن المسدس نزعته من يدها فى اللحظة التالية قبضة قوية كادت تهشم معصمها تهشيا . وكان الزنجى قد أضحى بجوارها لاصقاً بها تفغم أنفها رائحته، وهو يحاول جرها إلى الأرض . وبيدها الطليقة قاومته بجنون فجعلت

تخمش وجهه إلى أن أحست بيده الضخمة على عنقها . ولكنه لم يخنقها بل سمعت صوت تمزيق قب ثوبها حتى الخاصرة ثم راحت يده السوداء تعيث بين ثدييها فاستولى عليها الذعر والتقزز إستيلاء لم تعرف له مثيلا من قبل ، وجعلت تصرخ كالمجنونة ، فصاح الرجل الأبيض :

– أخرسها ! أخمد صوتها !

وشعرت باليد السوداء تعيث عبر وجهها إلى فمها ، فعضته بضراوة على قدر ما وسعها ، ثم شرعت تصرخ مرة أخرى ، وسمعت أثناء صياحها الرجل الأبيض يسب ويلعن فأدركت أن ثمة رجلا ثالثاً على الطريق المظلمة ، وتهاوت اليد السوداء عن فمها وقفز الزنجى وولى هارباً عندما هجم عليه سام الكبير . وصاح سام بها وهو يلتحم مع الزنجى فى عراك وحشى :

– أسرعى بالفرار يا مس سكارلت !

فقبضت سكارلت على عنان الجواد وراحت تلكزه وهى ترتجف وتصرخ فانطلق بها ، ووطئت سنابكه فى طريقها الرجل الأبيض الذى كان سام قد ألقاه على الأرض بضربة قاضية .

